مقتطفات من كتاب
العبودية الطواعية
دي لا بويسيه

حدوتة كتاب

إليك...لأنك تعرف لماذا!؟

كبسولة خير للبرمجيات
مصطفى علي سيد
(أبو مهاب)
https://cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com

مقالة
العبودية الطوعية

لا أرى خيراً، في أن يكون للمرء أسيادٌ عديدون

فليكنْ سيدٌ واحدٌ وليكن ملكٌ واحدٌ

ذلك ما قاله أوليس، وهو يخاطب الجمهور، حسب هوميروس. ولو أنّه اكتفي بالقول:

لا أرى خيراً، في أن يكون للمرء أسيادٌ عديدون[2]

مضى يسعى وراء الحرية الغالية على قلبه
حتى ليَعلَمُ أنّ بوسع المرء إنكارَ حياته حيالها

«لم نولدْ وحريتنا ملكٌ لنا فحسب،
بل نحن مكلّفون أيضاً بالدفاع عنها»[1].

لا بويسي

الحرية هي «المقدس الزمني للبشر».

ر. بولين

لا تسعَوْا إلى التخلّص منه بل أعربوا عن الرغبة في ذلك فقط. احزُموا أمركم على التخلّص نهائياً من الخنوع وها أنتم أحرار. أنا لا أريدُ منكم الإقدام على دفعه أو زحزحته، وإنما الكفَّ عن دعمه فقط، ولسوف ترونه مثل تمثالٍ عملاق نُزعت قاعدته من تحته، كيف يهوي بتأثير وزنه فيتحطّم.

أ. يقول لا بويسي: «إنّ الشعوب هي التي تنقاد بنفسها». «إنّ الشعب الذي يستسلم بنفسه للاستعباد، يعمد إلى قطع عنقه»[20]. ويقول أيضاً: هي طبيعة شوهاء لدى الناس، فالطموح إلى الحرية يتناغم مع العقل يميّز مخطط الوضع البشري. مع ذلك، يكفي أن يتمنى الناس الحرية حقيقة حتى ينالوها[21]. ويفسّر ذلك العوَز كل الأمراض التي تحاصرهم تباعاً. أما النّعم التي تظلّ قائمة فتفقد طعمها ونكهتها، لفرط ما هم فاسدون بفعل ذلك التشويه

إن ارتقوا إلى العرش بأساليب شتى، فإنّ طريقتهم في الحكم تكاد تكون تقريباً هيَ هيَ على الدوام، فالذين اختارهم الشعب يعاملونه معاملة ثور يقومون بتطويعه، ويرى الغزاة فيه طريدة من طرائدهم، أما الوارثون، فهو في نظرهم قطيعٌ من العبيد يملكونه بالفطرة.

وهكذا إذاً، فلكي يكون الطاغية كل شيء، ينبغي ألا يكون الشعب شيئاً: «ينتزع الطاغية كل شيء من الكل»[47]. ويندّد لا بويسي بقوة، قبل مونتسكيو بزمنٍ طويل، بتشويه طبيعة السلطة السياسية، الذي يُحدثه طغيان فرد واحد.

ليس انتهاء هؤلاء الطغاة الصغار إلى الهلاك هو الأكثر خطورة. لكنّ الجانب الكارثي، في ذلك الهرم الاجتماعي المنخور بالسوس، إنما هو أنّ التواطؤ المكتوم لتلك الطبقات من اليعاسيب يخدم الطغاة «ليس فقط على تعويد الشعب الخضوع والعبودية، وإنما أيضاً على الخشوع»[51]. وعلى ذلك يقوم مكرُ الطاغية على «استعباد أفراد الرعية بعضهم بواسطة البعض الآخر»[52]، فيجعل منه «مفترساً حقيقياً للشعب». وهكذا نضع يدنا هنا على المبدأ السرّي للأجواء الاعتقالية في كل الأزمان.

ليس ما هو أيسر على الطاغية، حيال «عامة الشعب» وهم في حالة غباء تام، من أن يزهو وهو في قمة هذا الهرم الاجتماعي، بهيبة الحاكم **الأوحد**. سلطته هي عزلته. ذلكم هو إذاً، يضع نفسه في مصاف إله، بسبب الشكل الذي يفرضه برياء على بلاده. وأقلّ ما يُقال فيه إنه يلعب لعبة الألوهية إنْ بقي لديه شيء من صفاء الذهن. وعلى ذلك كان العاهل يظلّ متوارياً عن الأنظار عند الأشوريين، وأنّ فراعنة مصر كانوا يُحيطون أنفسهم بالأسرار، وأنّ بيروس (Pyrrhus) كان ينسب لـ «إصبعه الكبير» فضائل شفائية عجيبة. ويدّعي ملوك فرنسا أنفسهم بحيازة «الحقّ الإلهي»... وتلك هي أساليب لتلقي العبادة من الجماهير الشعبية، التي تنتظم في عبوديتها الخاصة، بدءاً من رجال البلاط وحتى الفلاحين، وتقع في الخضوع كما يقع آخرون في الدين.

ويقول إنّ الذين «يملكون بالفطرة عقلاً سليماً» والذين يزيدون على ذلك «فيصقُلونه بالدراسة والمعرفة»(76)، يرون من فورهم ما قوامُ الخير للإنسان. «إنهم، وقد ولدوا خيراً من الآخرين، لا يسعهم أن يألفوا الخضوع» وحتى حين «تفقد الحرّية تماماً وتغدو خارج عالمهم، يظلّون يتخيّلونها ويشعرون بها في فكرهم»(77). وليس ما يدعو إلى تعليمهم ما قوام الحرية: فلديهم إحساس بها داخلي وحي.

غير أن أعرف كيف، أتساءل: أليس واضحاً أنّ الطغاة قد جهدوا، من أجل تثبيت حكمهم، **في تعويد الشعب ليس على الخنوع والعبودية فقط بل على عبادتهم أيضاً؟** إنّ كلّ ما قلت حتى الآن عن الأساليب التي استخدمها الطغاة للاستعباد، لم تُطَبَّق إلا على الشعب الفقير الجاهل .**وأصل في بحثي الآن إلى نقطة، تشكّل في نظري الدافع والسرّ الكامن وراء السيطرة، والدعم والأساس لكل طغيان، فواهمٌ كلّ الوهم من يظنّ أنّ فؤوس الحرب والحرس والمراصد تؤمّن حماية للطغاة، فهم يستخدمونها، في اعتقادي، شكلاً وترهيباً، أكثر مما يثقون بها، فرماة السهام يسدّون مداخل القصور أمام التعساء الذين لا يملكون أي وسيلة إيذاء، لكن ليس أمام الجسورين المسلّحين.**

هنالك ثلاثة أنواع من الطغاة[14]، فالبعض الأوّل يسود عبر انتخاب من الشعب، والبعض الآخر بقوة السلاح، أما البعض الأخير فبالتوالي الوراثي. أما الذين اغتصبوا السلطة بقوّة السلاح فيتصرّفون بها ـ نحن نعرف ذلك ونقوله بوجه حق ـ كأنهم في بلاد قاموا بغزوها. أما الذين وُلِدوا ملوكاً، فليسوا على العموم أفضل مطلقاً، فالذين وُلدوا وترعرعوا في حضن الطغيان، يرضِعون الطغيان طبيعياً مع الحليب، وينظرون إلى الشعوب الخاضعة لهم، نظرتهم إلى عبيد بالوراثة. ويتصرّفون بالمملكة وفقاً لطبعهم الغالب ـ بخلاء كانوا أم مبذّرين، مثلما يتصرّفون بإرثهم. أما الذي تأتيه السلطة عن طريق الشعب فيبدو لي أنّ عليه أن يكون محتمَلاً أكثر. وأعتقد أنه يمكن أن يكون كذلك لولا أنه ما إنْ يرى نفسه مرفوعاً أعلى من الجميع، حتى يساوره الغرور بفعل ذلك الذي يطلقون عليه اسم العظَمة، فيصمّم على أن لا يتزحزح عن مقامه. ويعتبر على نحو شبه دائم أنّ القوة التي منحه الشعب إياها، ينبغي أن ينقلها إلى أبنائه.

والحال أنّ العجيب في هؤلاء، أن تراهم فور تبنّيهم هذه الفكرة، كيف يتجاوزون في كل ألوان الرذائل، بل حتى في صنوف البطش، كل الطغاة الآخرين. ولا يجدون من وسيلة لضمان طغيانهم الجديد ما هو أفضل من نشر[15] العبودية وتعميمها وبذل كل قوة لاستبعاد أفكار الحرية من رعاياهم، مما يؤدّي إلى محوها من ذاكرتهم مهما يكن العهد بها قريباً. وإنّي، والحق يقال، لأرى في ما بينهم بعض الفروق، أما إنْ شئت الاختيار فلا أرى بينهم من فارق

إنّ الشعب الذي يستسلم بنفسه للاستبعاد يعمد إلى قطع عنقه، والشعب الذى يكون حيال خيار العبودية أو الحرية، فيدع الحرية جانباً ويأخذ نير العبودية وهو الذي يرضى بالأذى، بل يسعى بالأحرى وراءه. ولو تكلّف شيئاً لاستعادة حريته، لما قمتُ أنا بحثّه على ذلك، فماذا يمكن أن يكون أثمن لدى الإنسان من أنْ يجد نفسه ضمن حقه الطبيعي، وأن يعود، إذا ما صحّ القول، من كونه بهيمة إلى كونه إنساناً؟ لكنني لا أتوقع كذلك أن يكون لديه مثل هذا الإقدام، فأنا أقبَلُ معه بأنْ يفضّل طمأنينة ما للعيش ببؤس على أملٍ غير مؤكّد في العيش برفاهية. ثم ماذا؟ إذا كانت الحرية كي تنال لَا تتطلب إلا أن نتمناها، ولو كان الأمر متعلقاً بمجرّد الرغبة فيها، فهل كنا نقع على أمةٍ في العالم لاتزال تجدها باهظة الثمن، وهي التي تستطيع نيلها بأمنية واحدة، ومن عساه يأسف على إرادته في كسب منفعة ينبغي على المرء أن يدفع دمه ثمناً لها، وفقدانها يجعل الحياة مُرّةً والموت حسناً لدى كل إنسان شريف؟ لا ريب في أنّ الأمر كالنار التي تبدأ من شرارة صغيرة لتتأجّج ويشتدّ سعيرها على الدوام، وكلما وجدت حطباً أسرعت بالتهامه، والتي لا حاجة بنا إلى رميها بالماء لإطفائها. حسبنا أن نكفّ عن تزويدها بالحطب، وحين نكفّ عن إضرامها فإنها تأكل بعضها وتغدو فارغة من كل قوة لتصير إلى العدم: كذلك هي حال الطغاة، فكلما نهبوا وكلما ألحّوا في الطلب وكلما تسبّبوا بالتهديم والتخريب، وكلما ازداد الإغداق عليهم والإقبال على خدمتهم، تشتدّ سطوتهم ويصبحون أكثر قوة على